النصّ التحتيّ في «محور الشرّ»

أحمد الخميسي

على خشبة المسرح، من سوفوكليس إلى شكسبير وإبسن، كانت الشخصيات تعبِّر عن نفسها بلغة واضحةٍ ومباشرةٍ، أكثرَ ممَّا نجده فعليّاً في الحياة اليوميَّة فقط عند أنطون تشيخوف ظهرتْ تقنيَّةُ الحوار التي يشير فيها النصُّ المنطوقُ إلى ما هو أعمقُ ممَّا تعارفتْ عليه الكلمات، فأصبح هناك ما يسمّى «النصَّ التحتيَّ» حيث لم تعد اللغةُ تتجسَّد في الحديث المنطوق وحده بل في لحظات الصمت والسكون أيضًا. فيما بعد لَفَتَ الكاتبُ المسرحيُّ الإنجليزيُّ هارولد پنتر الانتباهَ إلى أنَّ اللغة لم تعد تُستخدم من أجل التواصل إلا نادرًا. وبعبارة أخرى، فإنَّ البشر لا يقولون ما يَعْنون، بل إنَّ ثمَّة دائمًا نصّاً آخرَ وراء كلماتهم، وعلى المتلقّي أن يستشفّ هذا النصّ من صميم الوقائع والمواقف والنبرة، لا من منطوق الألفاظ.

شكّل مسرحُ السياسة الدوليَّة، والسياسة المحليَّة، وبيانات الزعماء، وتاريخ الدول، المجالَ الأعظمَ لظهور شبح النصّ الآخر وراء كلّ النصوص المنطوقة. ففي وقت من الأوقات كان الاستعمارُ البريطانيُّ يعلن أنَّ وجوده في فلسطين «انتدابٌ»، وأنَّ ثكناته العسكريَّة وأرتالَ دباباته في دول أخرى «حمايةٌ» بل «ارتقاءٌ بالشعوب ونشرٌ للحضارة.» وكانت هناك نصوص أخرى تحت تلك التصريحات، تُقرأ كالكتابة بالحبر السريّ، فقط على وهج النار ومازال التعبيرُ الأمريكيُّ الشهير «الغموض البنّاء» constructive ambiguity خلال مفاوضات فلسطينيَّة ـ إسرائيليَّة ينشع في النص التحتيّ بدماء المجازر في غزّة والضفّة.

في خطاب الرئيس بوش في ٢٩ يناير أمام الاتحاد الفيدراليّ تحدّث عن «محور للشرّ» تكوّنه ثلاثُ دول هي العراق وإيران وكوريا الشماليَّة، فأثار القلقَ بين حلفاء أمريكا أنفسهم. ووصف أُوبِرْ فِيدرين وزيرُ الخارجيَّة الفرنسيَّة السياسةَ الأمريكيَّةَ بأنَّها «ساذجة.» ونبَّه يوشكا فيشر وزيرُ الخارجيَّة الألمانيَّة إلى أنَّ حلفاء أميركا ليسوا «أقمارًا تابعة، كما أنَّ التحالف بين الديمقراطيَّات الحرّة لا ينبغي أن يكون مجردَ طاعة للأوامر.» وغضبتْ موسكو وبكين محذِّرتيْن من حديث «محور الشرّ.» وشنّ كريس باتن باسم الاتحاد الأوروبيّ هجومًا عنيفًا على السياسة الخارجيَّة الأمريكيَّة، متَّهمًا إدارةَ الرئيس بوش بالانسياق وراء منهج سطحيّ ومستبدّ وأعلنتْ طوكيو رفضَها تصنيفَ الولايات المتحدة لكوريا الشماليَّة «دولةً في محور للشرّ »

فأيُّ نص تحتيّ إذن هو الذي ألَّبَ على واشنطن كلَّ أصدقائها القدامى والجدد، ناهيك عن خصومها؟

الأمن القوميّ الأمريكيّ: أَمْنٌ يبلغ أيَّ نقطة

لا شكّ في أنَّ الخوف، والغضب، والاستياء المكظوم من الحديث عن «محورٍ للشرّ» تَرْجع في الدرجة الأولى إلى إدراك أغلب العواصم العالميَّة أنّ الظروف الدوليَّة مهيّأةٌ الآن ـ أكثرَ من أيّ وقت مضى ـ لوضع نظريَّة «الأمن القوميّ الأمريكيّ» كما تفهمه أمريكا موضعَ التطبيق وهذه النظريَّة قامت على أساس أنَّ الأمن الأمريكيّ يقع خارج الولايات المتحدة، وأنَّ كلّ حفنةِ رملٍ أو تجمُّعٍ بشريّ على بعد آلاف الأميال من واشنطن أمرٌ من صميم هذا الأمن. وهذا المبدأ يَضْرب بجذوره في تاريخ الولايات المتّحدة وطبيعةِ تكوينها ونشأتها، منذ أن أَعْلن الرئيس توماس جيفرسون عام ١٨٠٤ أنَّه «في حال نشوب حرب فإنَّ الولايات المتحدة ستحتلّ كوبا لتَضْمن على الصعيد الإستراتيجيّ الدفاعَ عن لويزيانا وفلوريدا.» وفي عام ١٨٢٣ صاغ الرئيس جيمس مونرو ذلك المفهومَ في مبدإٍ عُرف باسمه، حين حذَّر الدولَ الأوربيَّةَ من منافسة بلاده في المستعمرات الإسبانيَّة بقوله: «إننا نعتبر أيَّ نيَّةٍ لهذه الدول في توطيد نظامها السياسيّ في أيّ جزء من نصف كرتنا خطرًا على سلامتنا وعلى أمننا.» وتطوَّر هذا المفهومُ بحيث أصبح يَسْمح بالتدخُّل، عندما صرَّح الرئيس ثيودور روزفلت عام ١٩٠٤ بأنَّ «التخوُّف من أيّ تدخُّل أوروبيّ في شؤون بلد من أمريكا

مصطلح «محور الشرّ» تضمّن في الخطط الأميركيّة إلقاءَ القنابل الذريّة على ناغازاكي

اللاتينيّة يبرّر تدخُّلَ الولايات المتحدة هناك.» ولاحقًا طلب الرئيس وودرو ويلسون عام ١٩١٧ من الدول الأخرى أن تُقرّ بسلامة التدخُّل مقترحًا «أن تَقْبل الأممُ بمعنًى ما، وبعد تفاهم متبادل، مبدأ الرئيس مونرو كمبدإٍ صحيحٍ عالميّاً.» وخلال الحرب العالميّة الثانية صكّت أمريكا تعبيرَها «محور الشرّ» إشارةً إلى دول المحور (ألمانيا وإيطاليا واليابان)، واتّضح لاحقًا أنّ النصّ التحتيّ لذلك المصطلح قد تضمّن في الخطط الأمريكيّة إلقاءَ القنابل الذريّة على هيروشيما ونغازاكي دون مبرّر عسكريّ. وقبل أن يتبدّد دخانُ الحرب، أصبح حلفاءُ الأمس السوفيت خصومَ اليوم. وعلى الفور ظهر «مبدأُ ترومان» الذي أعلنه الرئيس ترومان في مارس ١٩٤٧، وكان النصُّ المنطوقُ هو «مساعدة الشعوب التي تهدِّدها الشيوعيَّةُ،» في حين كان النصُّ الآخرُ هو «تعبئةَ العالم في حرب باردة ضد السوفيت.» وفي رحلة المصطلحات التي تُلْهم حركةَ «الأمن القوميّ الأمريكيّ» كانت فروعٌ صغيرةٌ تمتدّ من شجرة النصّ الرئيسيّ فوق كل منطقة بأوراق تلائم طقسَها. ولهذا مثلاً نَشَرَ الرئيس آيزنْهاور، لمواجهة حركات التحرر العربيَّة، نظريةَ «ملء الفراغ في الشرق الأوسط،» و«حلف بغداد» أيضًا.

ورغم أنّ أمريكا حرصتْ على تغطية خطورة المفهوم الأمريكيّ للأمن القوميّ على العالم بربطه بالدفاع عن الديمقراطيَّة وحريَّةِ الشعوب الأخرى، فإنّ تلك التغطية لم تُقْلعْ في حجب طبيعة السياسة الأمريكيَّة المتمثّلة في الهيمنة والانتقائيَّة. فعندما وصل سلڤادور الليندي إلى الحكم في التشيلي بانتخابات حرَّة عام ١٩٧٠، صرَّح هنري كيسنجر في ٢٧ يونيو من ذلك العام بالقول: «إنّني لا أَفْهم كيف ينبغي علينا أن نقف مكتوفي الأيدي وأن نرى، بسلبيَّةٍ، بلدًا يصبح شيوعيّاً لأنّ شعبه لا يُبْدي مسؤوليّة كافية.» وبذلك أصبحتْ واشنطن هي التي تحدِّد متى يكون شعبٌ ما على حقّ عندما يختار هذا الطريقَ أو ذاك، ومتى يكون خيارُه نوعًا من «عدم الشعور بالمسؤوليّة!»

ومع اشتداد التنافس الدوليّ بين السوفيت والأمريكيّين، تجدَّد الحديثُ عن «الشرّ» ـ لا الألمانيّ النازيّ، بل الشيوعيّ. فأَطْلق رونالد رايغن بعد فوزه في الانتخابات الأمريكيَّة عام ١٩٨٠ تعبير «إمبراطوريَّة الشر» على الاتحاد السوفيتيّ.

إلا أنّ سقوط سور برلين، وظهورَ سياسة «إعادة البناء» (البريسترويكا) كانا نذيريْن بقرب زوال الدولة السوفيتيَّة. فتحدَّث الرئيس جورج بوش عام ١٩٩٠ عن «نظام عالميّ جديد،» تمّ اختبارُه بالفعل في حرب الخليج الثانية حيث وقف السوفيتُ والأمريكانُ حلفاءَ في حرب واحدة لأول مرة بعد مواجهتهما المشتركة للنازيَّة.

وأتاحت السنواتُ العشرُ التي تلت زوالَ الاتحاد السوفيتيّ الفرصةَ لأمريكا لكي تُلقي الضوءَ بقوة على رؤيتها للعالم والعلاقاتِ الدوليَّة، وموقعِها من كل ذلك، بغطرسةٍ غيرِ مسبوقة، عَرَّتْ من المطالب والتطلعات ما فاق أهدافَ أيَّة إمبراطوريَّة أخرى عرفها التاريخُ البشريُّ.

سنوات الاختمار

ليس الحديثُ عن «محورٍ للشرّ» أكثرَ من لحنٍ ختاميّ تحتشد فيه كلُّ الإيقاعات السابقة لتبلغ نتيجةً نهائيَّةً اختمرتْ خلال السنوات العشر الأخيرة. فهذا المحور هو تتمةٌ لعدة مفاهيم سبقتْه ظهرتْ في تعاقبٍ زمنيّ يواكب الأحداثَ وهي: مفهوم «نهاية التاريخ» الذي طرحه فرانسيس فوكوياما عام ٨٩: ثم «النظام العالميّ الجديد» الذي طرحه الرئيس بوش في أوائل التسعينيّات: وأخيرًا مفهوم «صراع الحضارات» أو «صِدامها» الذي طرحه صامويل هنتنغتون في مقالٍ صيفَ ٩٣، وفي كتابه المسمَّى بالعنوان نفسه فيما بعد. «محور الشرّ»، إذن، هو الحركة الرابعة الختاميَّة في معزوفة السياسة الخارجيَّة الأمريكيَّة.

النص التحتي في «محور الشر»

كان فوكوياما قد أَسْبَغَ بمقاله «هل هي نهاية التاريخ؟» الشرعيَّةَ النهائيَّةَ على نمط الحكم الأمريكيّ، معتبرًا أنَّ ذلك النمط هو «المحطة النهائيَّة» لقطار التطور الاجتماعيّ والسياسيّ في مواجهة كلّ التجارب السابقة، بل والمحتملةِ مستقبلاً. فقد أشار إلى أنَّ هناك «إجماعًا على شرعيَّة الديمقراطيَّة الليبراليَّة كنظام حكم بعد فشل الإيديولوجيَّة الاشتراكيَّة، والملكيَّة، والفاشيَّة» وإلى أنَّ الليبراليَّة تشكّل «نقطةَ النهاية في التطور الإيديولوجيّ للإنسانيَّة، والصورةَ النهائيَّةَ للحكم البشريّ.» والحقّ أنَّ ما كتبه فوكوياما هو أقربُ ما يكون إلى إعلان انتصار، فَتَحَ البابَ لخطوة أخرى أكثر تقدُّمًا، هي إشهارُ «العولمة» على لسان الرئيس بوش الأب عام ١٩٩١ نظريةً للنهب الدوليّ، مادام التاريخُ قد انتهى عند ذلك النهب. وجرى تصويرُ العولمة وكأنَّها قدرٌ كونيٌّ لا رادَّ له، قادمٌ من بين السحب على أجنحة العلم الحديث، لا أنَّها مجموعةُ سياساتٍ توقَّع الحكوماتُ والبرلماناتُ على اتفاقيَّاتها بمحض إرادتها، كما يُمْكنها ألا توقِّعَ عليها.

هكذا أحنى فوكوياما رقبةَ التاريخ أمام التجربة الليبراليَّة المتوحشة قائلاً له «هنا نهايتك»: وسارع الرئيس بوش ليُوضح الطبيعةَ الاقتصاديَّةَ لنهاية التاريخ، مُشْهرًا العولمة. وانتهى التاريخ إيديولوجيّاً وفعليّاً، من وجهة نظر المصالح الأمريكيَّة وفكرها السياسيّ طبعًا. أما في الواقع فقد ظل التاريخ مُطْلَقَ السراح، يتجول بعيدًا، مهدِّدًا بكل الاحتمالات. وهنا تحديدًا ظهر مقالُ «صِدام الحضارات» لصامويل هنتنغتون صيفَ ٩٣. وقد رأى هنتنغتون أنَّ التاريخ مُطْلق السراح في مناطق خطّ الفقر الذي يتقاطع مع دول تقطنها غالبيَّةٌ مسلمةٌ، وفيها النفطُ وثرواتٌ أخرى.[١] وتصوَّرَ أنَّ المجابهة القادمة ستتمّ بين الحضارة الغربيَّة والإسلاميَّة، لا بسبب النفط، بل لأنَّ الدين والثقافة هما العامل الرئيسيّ المحرِّك للحروب القادمة. ولم ير تناقضًا بين ذلك الطرح وواقع أنَّ الحربيْن العالميتيْن اللتيْن وقعتا في أوروبا كانتا بين شعوبٍ متقاربة دينيّاً وثقافيّاً. كما لم يَلْمح المفارقةَ الغريبةَ في أنَّ «صراع الحضارات» ذاك يهدِّد العراقَ وليبيا وسوريا وفلسطينَ والسودانَ والصومالَ، وكلُّها تنتمي إلى الحضارة الإسلاميَّة، دون أن يهدِّد الكويتَ والسعوديّةَ ودولَ الخليج التي تنتمي إلى الحضارة نفسها! لكنَّ طرح هنتنغتون لم يكن سوى محاولة للعثور على تبرير نظريّ، فلسفيّ، لشنّ الحرب على المناطق الفقيرة التي تقاطعتْ مع الدين الإسلاميّ.

هكذا أصبح لدى الولايات المتحدة مثلَّثٌ كاملُ الأضلاع: من «نهاية التاريخ،» ونهب العولمة، ثم الاستعداد للضرب في أيّ نقطة. وما إنْ مزقت الطائراتُ في ١١ سبتمبر هيبةَ الولايات المتحدة حتى مضت التصريحاتُ الأمريكيَّةُ مضطربةً ما بين «مواجهة الإسلام» و«مواجهة الإرهاب» و«المطالبة برأس بن لادن،» وغيرِ ذلك. وفجأةً انتقلتْ أمريكا ـ بعد أن فشلتْ في إقناع العالم بالعقاب الجماعيّ لشعب أفغانستان بأكمله بحثًا عن أفراد ـ إلى الحديث عن محورٍ للشرّ يضمّ العراقَ وإيرانَ وكوريا الشماليَّة. وبدا أنَّ ذلك الانتقال من قصة أفغانستان إلى قصة كوريا عارٍ من أيّ منطق، لاسيما عندما يقترن ذلك بالتلويح الجنونيّ باستخدام السلاح النوويّ، والتمسكِ بتطوير درع صاروخيَّةٍ جديدة، والانسحابِ من معاهدة حظر الصواريخ الباليستيَّة لعام ١٩٧٢، والإبادةِ اليوميَّة على مرأًى من العالم أجمعَ لشعبيْن كامليْن في العراق وفلسطين، ثم إدراج دولٍ أخرى في محور الشرّ قبل التراجعِ غير النهائيّ عن إدراجها.

---

١ ـ في وقت ما، بعد أن خفضت الدولُ العربيَّةُ عامَ ٧٣ صادراتِ البترول، صرّح الرئيس فورد في ٢٣ أغسطس ١٩٧٤ بأنَّ أحدًا «لا يستطيع أن يَحْسب النتائج الوخيمة التي قد تترتَّب على رفض بعض الأمم مشاطرةَ الأمم الأخرى هِباتِ الطبيعة [!]»

هل كانت الحملة على أفغانستان مجرّد فرقعة سياط لإرهاب الآخرين وتهيئتهم لعمليّات التأديب؟

وخلافًا لكل النصوص العاقلة المنطوقة التي كانت تُخفي وراءها أشباحَ نصوص أخرى مجنونة، فإنّ نصّ «محور الشرّ» المجنون يُخفي وراءه نصّاً آخرَ عاقلاً تمامًا. وإلاّ فكيف لنا أن نَفْهم الحديث المكرّر للرئيس بوش عن «الفرصة الذهبيّة التي أتاحتها ضربةُ ١١ سبتمبر لنشر أفكار الحريّة في آسيا»؟ فهل كانت الحملةُ على أفغانستان مجرّدَ فرقعةِ سياطٍ في الهواء لإرهاب الآخرين وتهيئتهم لعمليات التأديب؟

الواضح أنّ «محور الشرّ» مفهومٌ لقطع الطريق على عمليات مستقبليّة، وأنّ أفغانستان لم تكن سوى مدخل إلى ساحة واسعة تُحْكِمُ فيها أمريكا سيطرتَها على القوى النوويّة في الهند وباكستان، وتُجْهِض بها بوادرَ التعاون بين روسيا والصين وإيران والهند، وتُثبِّت وجودَها العسكريَّ في آسيا الوسطى عبر أفغانستان، وتحاصر بها الصينَ كقوة اقتصاديّة وعسكريّة صاعدة. والمقصود بمحور الشرّ، إذن، قطعُ الطريق على بدائل تَخْتمر في المستقبل. ولهذا فإنّ المصطلح المطّاط يضمّ، مع العراق وإيران، كوريا الشماليّةَ، لتتّسع بذلك خريطةُ الأهداف. إلا أنّ الشرق الأوسط يَشْغل مكانَ الصدارة حاليّاً في تلك الخريطة بدوله: العراق وفلسطين وسوريا ولبنان واليمن والسودان. هذه هي الأهداف الأولى التي ستجد مسوِّغاتٍ قصفها في التذرُّع بالأصوليّة الإسلاميّة، والإرهابِ، وصدامِ الحضارات، ونهايةِ التاريخ، والعولمة. وهكذا فإنّ مصطلح «محور الشر» تعبيرٌ عن مشروع للهيمنة العالميّة الجديدة، وهو مصطلحٌ وفَّرتْ له أحداثُ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ الفرصةَ للظهور والحركة، كما قال الرئيس بوش.

بمصطلح «محور الشر» تعلن الولاياتُ المتحدةُ انتقالَها الصريحَ من المزاوجة بين الدبلوماسيّة والحروب، إلى عهد جديد، أيْ إلى سياسة حربيّة عسكريّة بحتة، يقوم خلالها الجنرالاتُ بالدور الأكبر. وهي مرحلة مختلفة ذاتُ سماتٍ جديدة:

- فهي مرحلة تستقلّ خلالها المخطَّطاتُ الأمريكيّةُ عن المنظَّمات الدوليّة، مثل الأمم المتحدة وحلف الناتو. والأغلب أن يتحول هذا الحلفُ الأخيرُ إلى منظّمة سياسيّة، بعد أن عجزت البلدانُ الأعضاءُ عن تطوير نفسها عسكريّاً لتَلْحق بقدرات أمريكا.

- وهي مرحلة يعلو فيها برأسه مبدأُ أنّ أفضلَ وسيلة لتفادي الخطر هي وَأْدُهُ في مهده، أي القضاءُ المبكّرُ على مصدر الخطر. ومن هنا تحديدًا تلوح قائمةٌ بأسماء دولٍ مثلِ إيران لتوجيه الضربات الوقائيّة إليها.

- وهي مرحلة تستريح الخططُ العسكريّةُ إلى تحقيق أهدافها عبر تحالفات موقّتة. فليس محتَّمًا أن يكون التحالفُ الذي خاض الحربَ ضد أفغانستان هو نفسُه الذي سيشنّ الحربَ ضدّ العراق. فإذا بدأت الحملةُ على كوريا الشماليّة، فإنّ تحالفًا جديدًا قد يَظْهر خصِّيصًا. ذلك أنّ سياسةَ تحالفاتٍ مرنة كهذه ستناسب واشنطن في المرحلة القادمة.

وفي كل الأحوال فإنّ القوة العسكريّة الأمريكيّة في كل الحملات القادمة ستكون هي القوة الرئيسيّة الضاربة، خاصةً أنّ قوى الدول الأوروبيّة مجتمعةً أو منفردةً لا تستطيع أن تكون ندّاً لها، ولاسيما في المجال الجويّ الذي صارت واشنطن تعتمد عليه في الأساس.

لكنْ هل يعني كلُّ ذلك أنّ أمريكا قد ألقت القبضَ على التاريخ؟ كلا. وعلى العكس من ذلك: فكلّ الإمبراطوريات التي عرفها التاريخُ من قبل بدأتْ رحلةَ السقوط في اللحظة التي بلغتْ فيها أقصى درجات الاكتمال فلم تعد قادرةً على أن ترى شيئًا سوى صورتها.

القاهرة

أحمد الخميسي

صحفيّ وقصّاص ومترجم. له العديد من الكتب والمقالات. حاصل على الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة موسكو. وهو المراسل الجديد لمجلة الآداب في مصر.